مجلة جامعة الملك سعود، م ٥، الآداب (٢)، ص ص ٧٠٧-٧٣٤ (١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).

الأمن لدى قبائل الجزيرة العربية: نظام الدخَل

محمد كميَّخ العتيبي

أستاذ مساعد، قسم الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ٢٩/١٠/١٤١١هـ، وقبل للنشر بتاريخ ٩/١٠/١٤١٢هـ)

ملخص البحث. يهدف هذا البحث إلى دراسة نظام الدخل الذي كان سائدًا في شبه الجزيرة العربية قبل خضوع القبائل الموجودة في المنطقة لحكومات مركزية. وكيف أن هذا النظام (الدخل)* كان يؤدي وظيفة اجتماعية تسهم في حفظ توازن المجتمع.

وقد اعتمد الباحث في جمع مادة هذه الدراسة على المنهج التاريخي، حيث جرى تتبع ما كتب عن هذه الظاهرة في الأدبيات من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد تمت مقابلات مع بعض كبار السن الذين عايشوا هذا النظام في الماضي عندما كان سائدًا في مجتمعات وسط الجزيرة قبل انضواء هذه المجتمعات ضمن نطاق الحكومات القائمة.

وقد شملت الدراسة النقاط الآتية:

أولاً: تعريف النظام: حيث تمت مناقشة هذا النظام وهو عبارة عن طلب الإجارة لمن ارتكب عملاً جنائيًا من شخص آخر، هو المُدخل حتى تحل قضيته [الجاني] مع المجنى عليه أو أقاربه وفقًا لأعراف المجتمع وعاداته.

ثانيًا: تقسيم أنواع الدخالة من حيث نوع الجناية: فهناك الدخيل المتقي وهو الشخص الذي قام بعمل معين يوجب الاقتصاص منه، وهناك الدخيل المتقاضي وهو الشخص الذي سبق أن أُعتدي عليه،

* يُعرف الدخل في اللغة العربية بالإجارة.

ومن ثم قام بالانتقام من الشخص الذي اعتدى عليه أو أحد أقاربه ويخاف أن يُعتَدى عليه مرة ثانية، وهناك الدخيل المعيب وهو الشخص الذي تكون جريمته مخلة بالشرف حسب عرف القبيلة.

ثالثًا: مدة الدخالة بعد قبول الدخيل، ينظر في حالته وتحدد المدة التي يستحقها حسب الأعراف القبلية السائدة، فقد تكون المدة قصيرة، وهي ما بين ثلاثة إلى ثمانية أيام. وقد تكون المدة ما بين سنة كاملة إلى سنة وشهرين، وقد تكون مدة الدخالة مدى حياة الدخيل أو إلى أن تحل القضية.

رابعًا: حقوق الدخيل وواجباته: أول حقوق الدخيل أنه يقبل كدخيل. كذلك يقوم الشخص المدخل بإكرامه، ولا يسمح لأحد أن يمسه بأذى مادام دخيلاً لدى الشخص المدخل.

خامسًا: تمت مناقشة وظيفة نظام الدخل في الماضي، وكيف أن هذا النظام، كأي نظام آخر، يؤدي وظيفة اجتماعية تساعد على حفظ توازن المجتمع القبلي في غياب السلطة المركزية، وكيف أن هذا النظام يتناسب تناسبًا عكسيًّا مع قوة سلطة الدولة، فكلما كان هناك سلطة مركزية قوية انحسرت وظيفة الدخالة والعكس صحيح.

المقدمة

كان وسط الجزيرة العربية إلى عهد قريب وإلى حد ما خاليًا من أي سلطة مركزية تنظم شؤون ساكني هذه الصحارى والقفار، كما أن السلطات التي وجدت في بعض المناطق، مثل الحجاز والأحساء وبعض مناطق نجد، قاصرة عن وضع نظام مركزي عام يخضع له كل مجتمع شبه الجزيرة العربية.

وكان معظم ساكني شبه الجزيرة ينتمون إما إلى قبائل بدوية متنقلة أو يقطنون قرى صغيرة متناثرة في أرجائها. هذا إذا استثنينا بعض المدن التي تكونت وأشهرها مكة والمدينة وجدة في الحجاز وبعض المدن في الجنوب، وبعض المدن الصغيرة في وسط هذه المنطقة وشرقها.

وكون القبائل العربية في الماضي بسيطة الحياة متنقلة وغير خاضعة لسلطة مركزية، فإن هذا لا يعني أنهم أناس فوضويون ليس لهم معايير ونظم سياسية تنظم شؤون حياتهم، وتحفظ توازنهم، وتكـون معايير لتفاعلهم، سواء بين أفراد القبيلة الواحدة أو بين القبيلة وبعض الشرائح القبلية الأخرى. كذلك فإنه بالرجوع إلى نظرية ماكس فيبر للسلطة، إذا

لم تنطبق السلطة البيروطرقية على هذا النوع من المجتمعات فإن السلطتين الكارزماتية والتقليدية تظهر في هذه المجتمعات القبلية.[١]

إن نظام «الدخل» في المجتمعات القبلية في الجزيرة العربية من أنبل القيم الاجتماعية لدى هذه القبائل لما يؤديه من وظيفة، حيث يعتبر مصدرًا للأمن في المناطق التي لم تتوافر فيها أسباب الأمن المركزية. ونجد القبائل التي تدخل الدخيل، ويكون نظام «الدخل» لديها قويًّا تفتخر بإدخالها الدخيل وإكرامه وتوفير سبل الأمن له. وتترجم ذلك في كثير من أشعارها التي تفخر بها وترددها أثناء المناسبات.

يقول مرزوق بن تنباك في مقاله عن الجوار لدى العرب فيما قبل العصر الأموي — وهو موضوع لا يبعد عن موضوع هذه الدراسة — «إن الجوار في مجتمع الصحراء يعد قيمة اجتماعية وضرورة تحتمها طبيعة الحياة، كما أنه يعد مصدرًا للأمن في المجتمع العربي في وقت لم تتوافر فيه أسباب الأمن، وقد اتخذ الشعراء هذا المعنى الأخير وفخروا بحماية الجار وأمنه والمحافظة على ماله وعرضه ونفسه.»[٢]

لذا، بسبب غياب سلطة مركزية، فإن هذه المجتمعات طورت نظمًا اجتماعية لترتيب حياتها في السلم والحرب لحفظ توازنها، ولتحافظ على بقائها من خلال تلك النظم. والسلطة التي تحمي هذه النظم ليست إلا مجموعة العوائد والقواعد والمعايير العرفية القبلية التي تسيّر شؤون الناس، وإن كانت غير مكتوبة، إلا أنها تحظى باحترام هذه المجتمعات، وملزمة لها لما تقوم به من محافظة على توازن هذه المجتمعات واستمرارها. فالمنازعات بين الأفراد

---

(١) عبدالجليل حليم، «البدو والسلطة السياسية في المغرب،» منشور في *ندوة البداوة في الوطن العربي في الجزائر من ٢٥-٢٧ أكتوبر ١٩٨٣م* (بغداد: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٧م)، ص٧٠.

(٢) مرزوق بن صنيتان تنباك، «الجوار في الشعر العربي حتى العصر الأموي،» *حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت*، ع١١، الرسالة السبعون، ١٤١٠/١٤١١هـ، ص٩.

والقبائل تحل على ضوء هذه المعايير التنظيمية التي تمثل جانبًا من البناء الاجتماعي لمجتمعات الجزيرة القبلية.

هذه النظم بدورها جزء من البناء الاجتماعي لهذه المجتمعات القبلية. ومن بين هذه النظم الاجتماعية التي تنظم جزءًا من النسق السياسي في حياة القبائل العربية نظام «الدخل» الذي ستناقشه هذه الدراسة. ففي شبه الجزيرة العربية، وقبل دخول كل المجتمع القبلي في هذه المنطقة تحت سيطرة حكومات مركزية، كثيرًا ما تنشأ بعض الصراعات، سواءً على مستوى الأفراد أو العشائر أو القبائل، ويكون من نتائج هذه الصراعات منهزم ومنتصر.

كما أنه كثيرًا ما يلجأ المنتصر إلى شخص آخر تفاديًا للأخذ بالثأر الذي يسعى إليه المنهزم أو المتضرر، حيث إن عملية الأخذ بالثأر سريعًا ما تُعاجل هؤلاء الذين أخذوا الغلب، ولأن عملية الأخذ بالثأر من الأنظمة القوية التأثير في المجتمعات العربية. فيقوم المغلوب بالاقتصاص بنفسه متى أصبح قادرًا على الأخذ بذلك أو عن طريق عصبته الذين يناصرونه من أجل الأخذ بثأره، والذين يعتبرون أن الاعتداء الذي يحصل على أي فرد من الأسرة أو من أفراد العشيرة هو اعتداء على الأسرة أو على العشيرة بكاملها، وليس على هذا الفرد فقط.

لذا فإن الشخص عندما يقوم بعمل يُوجب الأخذ بالثأر منه لقاء عمل اقترفه، فإنه يقوم بالبحث عن شخص آخر أو عشيرة تحميه من تعقب المجنى عليه أو عليهم له، والأخذ بالثأر منه، حيث يقوم هذا الجاني بالالتجاء إلى من يجيره ويحميه منذ اللحظات الأولى للحادثة، وذلك عن طريق عبارات يقولها يكون مصطلحًا عليها بين أفراد القبائل، كما أن الأعراف والمعايير القبلية توجب على الشخص المُدخل قبول هذا الدخيل وفقًا لشروط معينة. من هنا فإن الدخيل يُدخَل وفقًا لنظام معين هو نظام الدخل، وأحيانًا يسمى نظام الوجه، كذلك فإن الشخص المدخِل يقبل إدخال هذا الدخيل وفقًا لهذا النظام نفسه أيضًا، كما أن المجني عليه يتوقف عن الأخذ بثأره متى علم أن الجاني قد دخل على شخص معين.

وهذا البحث يهدف إلى دراسة نظام الدخل الذي كان سائدًا في شبه الجزيرة العربية قبل خضوع هذه القبائل لحكومات مركزية، وكيف كان يؤدي وظيفة اجتماعية آنذاك؟ وسوف يتناول الباحث دراسة هذا الهدف العام من خمسة جوانب هي :

(ا) تعريف نظام الدخل
(ب) أنواع الدخالة
(جـ) مدة الدخالة
(د) حقوق الدخيل وواجباته
(هـ) وظيفة الدخل وما حدث لها من تغير وأسباب التغير

إنه من الأهمية بمكان القيام بدراسة المجتمعات القبلية في الجزيرة العربية والتي تشهد تحولاً اجتماعيًا في جميع مناشط حياة سكانها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهذا التحول لا شك سوف يطمس كثيرًا من الأعراف والنظم الاجتماعية لدى ساكني هذه البقعة من العالم، وبذلك سوف يضيع تراث وقيم عاشت في ظلها هذه المجتمعات أحقابًا من الزمن. ومن ثم سوف يكون من المتعذر على المتتبع لتاريخ هذه الديار الوقوف على تراث هذه الشعوب الاجتماعي وما يتخلله من نظم كانت في الماضي مصدر توازنه واستمراره، وكيف كانت حياة هذه المجتمعات في الأزمنة السابقة! كما أن هذه الدراسة تلقي الضوء على بعض ما تبقى من هذه النظم قبل أن تندثر. وكذلك تسجيل أوجه الحياة الاجتماعية في هذه المجتمعات، التي إذا لم يتم تسجيلها، فسوف يطويها النسيان، ومن ثم سوف يفقد هذا المجتمع — الحالي والمستقبل — جزءًا من تراثه الاجتماعي الذي كان ولا يزال يميزه عن غيره من الشعوب. لذا فإن هذه الدراسة ليست إلا محاولة لرصد بعض الأنظمة التي كانت من عوامل الترابط والتوازن في المجتمعات القبلية في هذه المنطقة في غياب السلطة المركزية القوية الحديثة. وبمعرفة نظام الدخل في شبه الجزيرة العربية سوف يكون بمثابة النافذة التي يطل بها الإنسان على الماضي. كما أنه سوف يكون مرجعًا لمن أراد أن يدرس هذه المجتمعات ونظمها. كما أنه سوف يكون رافدًا في إثراء الدراسات الاجتماعية التي تهتم بحياة العرب قديمًا وحديثًا.

المنـــهج

هذه الدراسة هي دراسة وصفية اعتمد الباحث في جمع معلوماتها على ما يلي:

أولاً: المنهج التاريخي وهو ذو شقين

(ا) لقد تم استعراض بعض الكتابات التي تطرقت لنظام الدخل، وإن كانت شحيحة غير موجهة لهذه الظاهرة بذاتها بقدر ما هو وصف عابر لهذا النظام ضمن وصف حياة البـادية في الجـزيرة العربية، وذلك في بعض الكتب وخاصة التي كتبت عن بعض القبائل العربية في العراق والأردن.

(ب) بعد ذلك تمت مقابلة بعض كبار السن من رجال بعض القبائل ومشايخها في شبه الجزيرة العربية لسبر أهمية نظام الدخل في العمل على حفظ التوازن في هذه المجتمعات بحماية الأرواح وفقًا لمعايير معينة، والعمل على تجنب الفوضى في تلك المجتمعات. وبما أن بعض كبار السن هم ممن عاش في تلك الأزمنة والظروف التي كان نظام الدخل يمارس فيها ويطبق كنظام، لذلك فقد تمت الاستفادة من القصص الواقعية التي رووها ودعموها ببعض الأشعار، تلك القصص والأشعار قد أضفت قيمة تاريخية علمية على أهمية نظام الدخل كأحد الأنظمة البارزة في مجتمعات هذه المنطقة.

ثانيًا: ملاحظات وخبرات شخصية

إن كاتب هذا البحث هو أحـد أبنـاء قبائل وسط الجزيرة العربة، وقد قضى فترة طفولته المبكرة ضمن مضارب عشيرته متنقلاً في صحراء الجزيرة العربية ويسمع ما يدور في مجالس رجال قبيلته في كثير من القضايا ومن ضمنها الدخل. فهو لم يدرك الزمن الذي كان نظام الدخل يمارس فيه، وإنما أدرك أولئك الرعيل الذين عاصروا نظام الدخل. كما أن انتقـالـه للمـدينة لم يفصل بينه وبين قبيلته، حيث لا يزال اتصال قبائل الجزيرة العربية ببعضها قائمًا حتى الآن، سواء الذين ما زالوا يمارسون حياة الرعي والحل والترحال كنمط حياة لهم أو الذين انتقلوا إلى المدن واستقروا فيها.

نبـــذة تاريخيـــة

إن القبيلة في الماضي تعد مجتمعًا لأن لها مكونات المجتمع المتعارف عليه اجتماعيًا. فالقبيلة وحدة متماسكة متكاملة لها شعور مشترك وثقافة مشتركة، ولها مناطقها وأراضيها التي لا يجوز لها أن تخرج منها إلا بإذن من القبيلة التي تملك الأراضي التي ترغب هذه القبيلة الذهاب إليها، وغالبًا تكون فترة مؤقتة من أجل المراعي، ما تلبث هذه القبيلة أن تعود إلى أراضيها التي قدمت منها. كما أن كل قبيلة لها تنظيم سياسي يقف على رأسه شيخ القبيلة الذي يرجع إليه أفراد القبيلة كسلطة أعلى فيما يستعصي من الأمور. وكل قبيلة تنقسم أو تتفرع إلى فروع، وهذه التفرعات تتفرع إلى وحدات أصغر، كما أن هذه الوحدات هي بدورها تتفرع إلى وحدات أصغر أيضًا إلى أن تصل إلى أصغر تفرع لها يطلق عليه في بعض الأحيان الحمولة، وهو في الواقع ما يطلق عليه في قبائل وسط الجزيرة الخامس الذي تأتي بعده الأسرة، سواء كانت أسرة ممتدة أو نووية. وكل قبيلة تختلف من حيث تفرعاتها حسب كبر هذه القبيلة وتعدد تفرعاتها. وكثيرًا ما يطلق الشخص من القبيلة نفسها اسم قبيلته على نفسه ككنية، فيقول أنا (حربي أو عنزي) عندما يسأل لأول وهلة. ولكن عندما يسأل مرة ثانية من أي عشيرة من قبيلة عنزة مثلاً فيقول من ولد علي، وهكذا حتى يصل إلى حمولته أو خمسته ومن ثم عائلته.

والقبيلة العربية لها بناؤها الاجتماعي وتفرعاته، وكذلك نظامها السياسي وتفرعاته. وكل فرد من أفراد المجتمع القبلي محكوم بما تحويه الأنظمة الاجتماعية والسياسية في القبيلة. يولد الطفل ويتشرب ثقافة القبيلة من خلال أفراد أسرته الذين هم مدرسته الأولى، والخلية التي تنبثق عنها كل مقومات حياته البيولوجيه والثقافية. ثم بعد ذلك يحتك بالأقربين من أفراد عائلته القريبة وأبناء عمومته، ومن ثم خمسته، وهم الذين يلتقي نسبه معهم في الجد الخامس، لأنهم هم الأقرب إليه نسبًا، والأقرب إليه مكانيًا واجتماعيًا في المجتمع القبلي. بعد ذلك تبدأ ثقافته في الاتساع، وكل ذلك ينشأ في إطار ثقافة القبيلة، وقد يتعدى إلى الاحتكاك بقبائل أخرى، والتعرف على بعض ثقافات تلك القبائل.

وتعد القبيلة هي الوحدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كما أنه ليس بالضرورة

أن تكون القبيلة منتسبة إلى وحدة دم، ولكن قد تكون هناك قبيلة انضم بعض من فروعها إليها عن طريق التحالف، وهذا يحدث لسبب من الأسباب التي تسمح بها الأعراف القبلية، وفقًا للأنظمة التي تنظم شؤون الحياة في المجتمعات القبلية. ومن ثم يكون من تحالف مع القبيلة واحد منها، له ما للقبيلة، وعليه ما عليها بحكم الأعراف التي أعطته حق الانتماء إلى هذه القبيلة.

ونظام القرابة هو أساس البناء الاجتماعي في المجتمع القبلي. فالأسرة تكون شديدة التماسك، ثم العائلة أو الجماعة، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ومن ثم القبيلة. فكثير من الأنظمة القبلية تلزم الأقرب أكثر من الأبعد. فمثلاً هناك نظام الفرقة والثأر تلزم الخمسة إلزامًا، فمثلاً شخص صار عليه حكم بدفع مبلغ معين لقاء أرش مثلاً، فإنه لا يدفع إلا بمقدار ما يدفعه أي رجل ذكر بالغ يرتبط معه بالدم أو الحلف إلى الجد الخامس. وعندما تعدى الجد الخامس فإن عملية الالتزام تقل، أي أن هناك تناسبًا عكسيًّا بين قوة الالتزام ونطاق الجماعة القرابية. وهذا أخذًا بالمقولة العربية المعروفة: أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب. وهذه المسافة الاجتماعية تصدق على التركيب والترابط في القبيلة.

وللمجتمعات القبلية نظمها التي تحافظ عليها وتعدّها من الأمور الأساسية في حياتها، وإذا أخلت هذه المجتمعات بالحفاظ على نظمها التي تعتبرها أساسية، فإن ذلك له عواقب وخيمة بالنسبة لصورة القبيلة، فخشية البدوي من العار ـــ الذي يلطخ الشرف ـــ تسيطر سيطرة كاملة على فكره وسلوكه. وإذا نظرنا إلى المسألة من الجانب الآخر، لرأينا أن الشرف ومدى التمسك به هو الأساس الذي يقوم عليه مكان الفرد ومكانة العشيرة أيضًا في المجتمع العشائري، ومعيار ذلك كله هومدى محافظة الفرد أو العشيرة على العرف. وكلما زاد تمسك الفرد أو تمسك العشيرة بالعرف، نالت حظوة أكثر من التقدير والاحترام.[٣]

(٣) مصطفى محمد حسنين، *علم الاجتماع البدوي* (جدة: شركة عكاظ، ١٩٨٤م)، ص ص١١٦-١١٧.

فالأعراف والمعايير القبلية — هي بدورها أجزاء في تركيبة النظم الاجتماعية — لها قوتها وأصالتها بين القبائل العربية، ولكن هذه الأعراف تختلف في درجة قوتها باختلاف الوظائف التي تؤديها أو باختلاف النظم التي تدعمها هذه الأعراف والمعايير. فهناك أعراف ومعايير يُعدّ الخروج عليها أو التنازل عما تمليه على الفرد أو القبيلة خروجًا صارخًا، بل ينزل من قدر من يتهاون فيها سواء كان فردًا أو قبيلة إلى أسفل منزلة يمكن أن يصل إليها الإنسان في المجتمع القبلي. مثل ذلك نظام العرض* والضيافة وخيانة الجار أو الخوي أو غيره، بالإضافة إلى نظام الدخل الذي سوف تتم مناقشته لاحقًا. كما أن هناك بعض النظم التي تكون سلطتها غير قوية بالدرجة التي تلبس من يتهاون في تطبيقها جزاءات صارمة، وذلك مثل بعض العادات الاجتماعية التي نجد القبيلة تحث عليها وتحبذها، ولكن لا يلحق العار من لم يطبقها مثل الالتزام بطرق معينة في الاحتفالات بالأعياد والزواج وقضاء أوقات الفراغ وغير ذلك، وهذا غالبًا ما يدخل تحت التقاليد، وليس الأعراف الصارمة. وقد يتطور وضع بعض التقاليد عندما يتعارف المجتمع عليها، ويتواتر تطبيقها، وتصبح تمثل قيمة من قيمه التي يرى أنها أساسية لحفظ كيانه، فإنها تصبح نظامًا له قوة الإلزام.(٤)

الربايعة يعرف النظم الاجتماعية بأنها «الأوضاع التي اصطلح عليها المجتمع لتنظيم العلاقات بين الأفراد في مختلف شؤونهم الحياتية، بحيث غدت تلك الأوضاع قانونًا يحكم هذه العلاقات ويضبط تفاعلات الأفراد والجماعات بعضهم مع بعض.»(٥) فهذه النظم أملتها الحاجة إلى حفظ التوازن في المجتمع، وأصبحت سيدة كل يحترمها، لأنها تخدم الجميع وكل يتخذها معيارًا لتنظيم شؤون حياته وتضبط علاقاته مع بني جنسه.

والنظم الاجتماعية قد تنشأ تلقائيًّا في المجتمع عندما يستحسنها أعضاء مجتمع معين

* العرض هو الاعتداء على محارم الرجل ومن في حكم ذلك.

(٤) حسنين، *علم الاجتماع البدوي*، ص ص١٢٠- ١٢١.

(٥) أحمد حمدان الربايعة، *المجتمع البدوي الأردني في ضوء دراسة أنثروبولوجية* (عمان: منشورات دائرة الثقافة والفنون، ١٩٧٤م)، ص٩٠.

ومن ثم يبدأون في الأخذ بها بدون التزام، ثم تصبح مع مرور الوقت وتعاقب الأجيال عادة يتبعونها في كثير من علاقاتهم الاجتماعية. وشيئًا فشيئًا تصبح عرفًا اجتماعيًّا ما يلبث أن يكون معيارًا اجتماعيًّا. وهذه النظم عندما يشوبها التغير لسبب من الأسباب إما يحل محلها نظام أكثر كفاءة منها أو أن الأشخاص الذين يعتقدون بقوتها وإلزامها للكثير من سلوكهم قد أصبحوا قلة في مجتمع أكبر. لذا فإن المعايير التي كانت راسخة في أذهان هؤلاء القلة لا تصبح ملزمة لجميع أفراد المجتمع مثلما كانت عليه عندما كانت الأغلبية تقرها وتعززها.

نظام الدّخَل لدى قبائل الجزيرة العربية

النخوة لدى الإنسان العربي لها شأن كبير، ولا أدل على ذلك من النخوة التي أدت إلى فتح عمورية. وذلك عندما انتخت تلك الأعرابية بقولها وامعتصماه، حيث لبى لتلك العبارة بجيش عرمرم. وقد تكون النخوة من أجل دفع ظلم أو ضيم ألمّ بالشخص المنتخي أو الدخيل. والدخيل هو الشخص الذي ارتكب عملاً يوجب القصاص منه، سواء كان هذا العمل قتلاً أو ضربًا أو خلاف ذلك مما يستوجب الأخذ بالثأر ممن قام بعمل معين حسب الأعراف القبلية. ويعرف عبدالجبار الراوي الدخيل بأنه «المذنب الذي يطلب الحماية ممن دخل عليه.»[٦] ومن هنا فإن الدخيل ينخا ويستحث همة الشخص الذي يطلب منه أن يدخله فيقول تكفأ «يا فلان تراني دخيلك أو داخلاً على الله ثم عليك.» أو أن يقول: «أنا بوجهك يا فلان من فلان، وأنا دخيل المال والعيال،» وهذا بمثابة إعلان طلب هذا الشخص الخائف الحماية من الشخص الذي يخاطبه. ومن ثم يرد الشخص المدخول عليه أبشر بالعز وطيب الملفى. «أبشر قدامك قمراء وخلفك ظلما.» أو «دخل الدخيل وسلم.» أو «دخلت وخاب طلابك.» وهذا إعلان بوجوب الحماية لهذا الدخيل من قبل الشخص المُدخِل.

أما قبائل دهم فإن الدخيل عندما يقدم إلى شخص يريد أن يدخل عليه فيقول «يا مانع المكروب هبت نودك،»* فيجب الشخص «المدخول عليه تحجى وتنجى» ومثل هذه

---

(٦) عبدالجبار الراوي، *البادية*، ط٣ (الرياض: المؤلف، د. ت.)، ص٣٦٧.

* النود: الرياح والمقصود هنا في مثل هذه المناسبات أنك يا هذا الشخص هذا يومك الذي يمكن أن تبرز فيه وتظهر شجاعتك أمام الناس.

العبارات تقال في مواقف حرجة جدًّا، وغالبًا ما يكون الشخص الذي يطلب الدخل وراءه من يلاحقه للأخذ بالثأر منه قبل أن يصل إلى من يدخله، ومن ثم تفوت فرصة الأخذ بالثأر على المجنى عليه. كما أن الشخص المدخل أحيانًا يستفسر من الشخص الذي يدخل عليه قبل أن يدخله وذلك بعبارات استفسار سريعة كأن يقول ماذا بك؟ أو ما حدث؟ أو بما معناه ما هي القصة أو القضية ومع من؟ ولكن الدخيل لا يترك مجالاً لمثل هذا الاستفسار بل يصر على تكرار إحدى العبارات السابقة حتى يجيبه المدخل بالقبول. ومن ثم يشرح له قضيته. لأنه إذا أجاب عن الاستفسار فقد يكون للمدخل موقف من قضيته فلا يدخله أو قد يقوم الشخص الـذي تطلب الحـماية منه بالانتقام. لأنه أحيانًا يكون الشخص الذي يطلب الدخل قد ارتكب أمرًا لا يحق لأحد أن يدخله أو أنه قد قام بقتل أحد أقرباء الشخص المدخل. لذلك يصر على طلب الدخل أولاً لأنه بمجرد أن يقبله الشخص المدخل ويحطه في وجهه أي يقبل إدخاله، فإنه لا يستطيع أن يمسه بأي أذى حتى وإن كان قاتل ابن عمه أو أخيه.

هذه هي الإجـراءات الأولية لعملية الدخالة. بعد ذلك وبعد أن يؤمن الشخص المُدخل هذا الدخيل يقوم بسؤاله عن قضيته. وهذا الشخص الذي طلب الدخالة يقوم بشرح قضيتـه كاملة، وبكـل صدق وأمـانة، ولا يكذب في شيء أبدًا، ومن قضيته معه والرجال الذين حدثت له الحادثة معهم ومن هم الذين يطلب الحماية منهم لكي لا يمسوه بأذى.

بعد ذلك يقوم الشخص المدخل بتحديد وضع هذا الدخيل بالنسبة للدخل والمدة التي يحددهـا، سواء كانت مدة طويلة أو قصيرة حسب الأعراف المتفق عليها في القبيلة وحسب الجرم الذي ارتكبه الدخيل. (وسوف يكون هناك نقاش عن أنواع الدخيل والمدة التي تحددها الأعراف للدخالة في الصفحات اللاحقة.)

فإذا كان الشخص الـدخيل من خارج القبيلة يعلن في القبيلة، وفي الأماكن التي يتجمع فيها أفراد القبيلة بأن الشخص المدعو فلان بن فلان آل فلان هو دخيل على فلان بن

فلان آل فلان، وهذا طبعًا تعريف كامل بالشخص الدخيل والشخص المُدخِل وبذلك تأخذ «الدخالة» الصفة الرسمية وهي بمثابة تحذير لأفراد القبيلة لئلا يمس الدخيل بأذى سواءً من خارج أو داخل القبيلة.

أما إذا كان الشخص الدخيل من القبيلة نفسها فإن الشخص المُدخِل يقوم بالإعلان عن الدخيل وخاصة يقوم بتبليغ خمسة الشخص المجني عليه شخصيًا بما فيهم هذا الشخص المجني عليه بأن فلان بن فلان دخل عليه وهو في وجهه.* ويقوم بتحذيرهم من مغبة الاعتداء على دخيله أو أي من خمسته حسب سلوم القبيلة أي عاداتها وأعرافها.

إن نظام الدخيل عند القبائل العربية له صفة القبول بل له صفة الإلزام، ومتعارف عليه وتحكمه الأعراف والمعايير القبلية. ويقع اللوم من قبل القبائل والعشائر على من لا يقوم بإدخال الدخيل كلًا حسب قدرته من ناحية المدة، ونوع الجرم الذي ارتكبه الدخيل. كما أن الأعراف تحتم إدخال الدخيل في مواقف معينة وتسند هذا الشخص المدخل. ومن لم يقم بإدخال الدخيل الذي يلاحقه شخص آخر، فإن ذلك سوف يلحقه وقبيلته العار و«التسويد» من القبائل الأخرى. فالدخل نوع من الإجبار للمدخل. وهناك مثل معروف لدى القبائل العربية وهو (الدخل بلوى والكفالة شهوة) أي أن الدخل يلزمك إذا طلب منك وإن كان رغمًا عنك ويحتم العرف عليك أن تدخل الدخيل؛ أما الكفالة، فإن لك الخيار إذا أردت أن تقبلها أو ترفض أن تكفل أي شخص. ويلزم على صاحب البيت المتوجه إليه الدخيل إدخاله وإن لم يكن صاحب البيت موجودًا في بيته، فمثلاً لو عمل شخص عملاً يوجب الدخالة ومن ثم اتجه إلى بيت شخص يريد أن يدخل عليه، فعندما يقترب من بيت هذا الشخص يعتبر دخيلاً عليه وإن كان غير موجود. وقد حددت الأعراف القبلية المسافة التي تلزم الشخص المدخل بحماية الدخيل وهي أنه إذا وصل «مراح الإبل» أو «مراح الغنم» أو «حذفة العصا» فهو دخيل، فإن نظام الدخل «الحماية» يلزم صاحب هذا البيت الأخذ بحق الدخيل من الشخص الذي قد يعتدي عليه، وفي هذه الحدود وتسمى هذه العملية «تبييض الوجه.»

---

* هذا الدخل يشمل خمسة الجاني أيضًا لكي لا يعتدى عليهم المجني عليه أو أي فرد من خمسته.

ومع أن الدخيل هو شخص واحد وهو الذي ارتكب العمل الذي أوجب الأخذ بالثأر منه، إلا أن العرف يحتّم الأخذ بالثأر من عصبته إلى الجد الخامس. ويطلق عليهم الخمسة وهم الذين ينتمون بالنسب إلى جد واحد هو خامس جد. لذلك فإن كل واحد من هؤلاء ملزم تجاه الآخر بالتزامات معينة. فمثلاً لو حصل لأحد أقرباء الشخص الذين يلتقي معهم في الجد الخامس خسارة معينة، فإن كل من ينتسب مع هذا الشخص إلى الجد الخامس ملزم بأن عليه أن يدفع معه هذه الخسارة. حيث يقوم كبير الخمسة أو من يعينهم بقسمة المبلغ المطلوب من أحدهم على عدد الرجال البالغين الذين ينتسبون مع هذا الشخص في الجد الخامس، ومن ضمنهم هذا الشخص. هذا لا يشمل الديون الخاصة وإنما يختص بالدية والأرش (وهو ثمن الإصابة التي تحدث لشخص معين أو حيوان بسبب اعتداء أو تصرف شخص ما)، وما على الشخص الذي أحدث هذه الإصابة أو القتل إلا أن يدفع نصيبه كواحد من أفراد هذه الحمولة الذين يطلق عليهم الخمسة. كذلك فإنه إذا قتل أحد الخمسة أو اعتدى على شخص آخر، فإن أقرباء المعتدى عليه لهم الحق أن ينتقموا من الجاني وإذا لم يظفروا به فمن أحد خمسته.

كما أنه في عرف القبائل عندما تلجأ الزوجة المغتاظة من زوجها عندما تخشى أن يضر بها إلى بيت شخص آخر، فإن صاحب البيت يدخلها ويجيرها، ومن ثم يخبر أقرب ولي لها مثل أخيها أو والدها أو يوصلها إلى بيت أهلها.

والدخيل عادة يتوجه في طلب الدخل إلى شيخ القبيلة أو شخص له مكانة لدى أفراد القبيلة، ويشتهر بالشجاعة، لأن قوة المدخل تزيد من أمان الشخص الذي يطلب الحماية، ولكن أحيانًا لا يسمح الوقت باختيار الدخيل لأنه كثيرًا ما تكون الأمور آنية فليس هناك الوقت الكافي للشخص الذي يطلب الحماية لكي يختار من يدخله. فيدخل على أقرب شخص يكون حوله أو يدخل في بيت أحد الناس لأن ذلك له حماية وذلك من القول: للبيت حرمته، ويعتبر صاحب البيت وإن كان غائبًا مسؤولاً عن الحماية لهذا الشخص.

بعد أن تتم عملية الدخالة ويأمن الدخيل، فالعادة أن يقوم الشخص المُدخِل

بمحاولة قيادة المفاوضات من أجل تسوية وضع دخيله وكثيرًا ما تحسم القضايا بعد زوال فورة الدم وتأمين الشخص الذي طلب الحماية. وهذه التسوية تعتمد على سماحة الأخصام وفداحة الجرم والسوابق* أي القضايا السابقة المشابهة. ففي بعض الأحيان يكون هناك قضايا حصلت بين أحد أفراد جماعة المجني عليه وكذلك أحد أفراد جماعة الجاني وسبق أن حُلَّت بطرق سلمية. ومن ثم يكون لها وقع سابق في الأعراف القبلية في حل القضايا اللاحقة المماثلة التي تحدث بين أفراد القبيلة في المستقبل، ويكون للمسامحة والتنازلات التي قُدِّمت في الماضي دور في توجيه حل القضايا المشابهة. فمثلاً شخص قام باعتداء على واحد من قبيلة أخرى ولكن هذا الشخص المجني عليه قبل الصلح وقدم نوعًا من التسامح. فإنه لو حدث فيما بعد أن تعرض أي شخص من هذه القبيلة التي اعتدت إلى اعتداء من شخص من القبيلة الأخرى التي سبق أن اعتدى على أحد أفرادها وتسامح، فإن ذلك وحسب أعراف القبائل سوف يكون له دور في قبول الشخص المجني عليه في الحادثة الثانية أن يقبل بالصلح، وحسب الإجراءات التي اتخذت في الحادثة الأولى إذا كانت الحادثتان متشابهتين.

أما إذا لم يحدث صلح، فإن عملية الدخالة نافذة حسب الوضع الذي أعلن فيه وضع الدخيل للوهلة الأولى. أما إذا تمت تسوية الوضع، فإن الأوضاع تصبح عادية ولا داعي للدخل، ومع إعلان ذلك أيضًا كما أعلن عن عملية الدخالة في المرة الأولى. هذا في حالة التسوية؛ أما في الحالات الأخرى والتي لا يتم لها تسوية، فإن ذلك سوف يُناقَش عندما نتحدث عن مدة الدخالة لاحقًا.

أنـواع الدخالـة

هناك تقسيمات عدة لنوع الدخالة لدى القبائل في شبه الجزيرة العربية. فمنهم من يقسم الدخالة من حيث نوع الجناية التي أوجبت على الشخص الجاني أن يدخل والبعض يتعدى ذلك، فبالإضافة إلى نوع الجناية يضيف إلى ذلك إلى من دخل الدخيل «بمعنى هل دخل الجاني على أحد أفراد قبيلته أم أنه خرج من نطاق قبيلته.» فالدخل من حيث هو نظام

* وهذا ما يعرف بالمعدال وخاصة عند قبائل الحجاز.

قائم حسب أعراف معينة ولمدد معينة لا خلاف عليه بين القبائل العربية التي تقطن شبه الجزيرة، وقد يكون هناك اختلافات في الفروع وليس في الأصل.

النوع الأول: يقسم العرب الدخالة من حيث نوع الجناية إلى ثلاثة أنواع وهي:

(ا) الدخيل المُتقي: وهو الشخص الذي قام بعمل معين يوجب الاقتصاص منه. وهذا العمل ليس له سابقة إنما حدث أن تشاجر شخص أو عدة أشخاص مع أشخاص آخرين، أدى ذلك إلى غلب أحد الأفراد أو المجموعات على الأفراد الأخري. ولكن هؤلاء المغلوبين سوف يطالبون بالثأر ممن أخذ الغلب في المرة الأولى. ونتيجة لذلك، فإن من أحرز الغلب في المرة الأولى ليس أمامه إلا أن يدخل على من يرى أنه سوف يحميه ويجنبه الأخذ بالثأر من المجني عليه.

(ب) الدخيل المتقاضي: وهذا النوع يشمل الشخص أو الأشخاص الذين سبق وأن أُعتدي عليهم من قبل شخص أو أشخاص آخرين. ولكن هؤلاء الأشخاص أو الشخص المعتدى عليه استطاع أن يأخذ بثأره ممن يرى أنه غمطه حقه من قبل. لذلك بعد الأخذ بالثأر، فإن هذا الشخص غالبًا ما يلجأ إلى شخص آخر يدخله حتى يتجنب بطش من اقتص منه لأن ذلك يحدث في فترات فورة الدم، ولم يكن فيه مجال لتحكيم العقل والأعراف في بداية الحادثة. ولكن بعد أن يدخل المتقاضي، فإن الشخص المدخل، بعد أن يؤمن الشخص المتقاضي، وبعد زوال فورة الدم، يقوم بمحاولة حل القضية حسب الأعراف والمثيلات أي الأحداث السابقة التي حدثت من قبل في القبيلة.

(جـ) الـدخيل العايب: الدخيل العايب هو الشخص الذي تكون جريمته التي ارتكبها من الجرائم التي تنظر لها القبائل باحتقار والتي يعتبرونها من الأشياء التي يجب ألا تُرتكَب حسب العرف القبلي، مثل جريمة السرقة أو ارتكاب الأشياء المخلة بالشرف أو الاعتداء على المحارم وتقطيع الوجه، وهو أن يقوم شخص بالاعتداء على شخص آخر وهو دخيل عند شخص ثالث.

النوع الثاني: وهذا النوع يقسم حسب المنطقة الجغرافية للدخيل.

(ا) هل الدخيل يدخل على أي فرد أو مجموعة أفراد من القبيلة نفسها التي ينتمي لها أم أنه يدخل على شخص من خارج القبيلة، أي أنه يتعدى المنطقة الجغرافية لقبيلته؟ ومن الجدير ذكره أن العرف القبلي لا يسمح لأي فرد أن يقطن مع قبيلة غير قبيلته ما لم يكن سمح له بذلك من أحد أفراد القبيلة التي يود البقاء معها. ومتى ما انطبق عليه أحد الشروط التي تنظم بقاءه مع هذه القبيلة حسب الأعراف، فإن له ما لأفراد القبيلة من حقوق. أما الواجبات، فيعتمد على وضعه، فإن أصبح حليفًا أي فضل البقاء مع القبيلة بعد انتهاء قضيته، فإنه يُصبح واحدًا منها، بمعنى أن له ما لأفراد القبيلة — بما في ذلك الإدخال — من حقوق وعليه ما على أفراد القبيلة من واجبات.

(ب) أما إذا تعدى النطاق الجغرافي لمنطقة قبيلته وأصبح دخيلًا على قبيلة أخرى، فإنه يسمى — وحسب عرف كثير من قبائل شبه الجزيرة العربية — بالجالي. أي يجلى عن مضارب أو مناطق قبيلته كليًا ويعيش مع قبيلة أخرى. وكلمة جلاء فلان أي ابتعد كثيرًا وأصبح في منأى عن ديار قومه، وهذا النوع من أثقل الأمور على الجاني أن يكون بعيدًا عن ديار أهله وذويه. وكثيرًا ما يعتبر مثل هذا النوع من الدخل من الأشياء التي قد تعطي شيئًا من العزاء لأهل المجني عليه، لأن الجاني وأقرباءه قد جلوا أي ابتعدوا عن الديار. كما أن ذلك يهدي من غضبهم وتقول بعض القبائل في جنوب الجزيرة العربية (الجلوه نصر) أي نصر لأهل المجني عليه.

وهناك قصة لشخص من قبيلة عتيبة يقال له ابن سجوان قتل شخصًا من أفراد عشيرته، ومن ثم جلى عن ديار قومه خوفًا من أن يقتله أقرباء المقتول. وفي ليلة من الليالي نظر في اتجاه ديار قومه وراء البرق على ديار قبيلته وأنشد قصيدة يخاطب فيها ابنه ومن أبياتها هذا البيت الذي يصور مدى حبه لقبيلته ويتذمر من البعد عنهم، يقول:

يا حمود حيان الرفاقة مريفه* وأنا مع الأجناب كنى على نار

* حيان: جمع حي ويقصد بها ديار، الرفاقة: الأقرباء، مريفه: خصبة.

ولحسن حظه كان أقرباء المجني عليه يتربصون به يريدون قتله في تلك الليلة وسمعوا هذه القصيدة وعفوا عنه وأخذوه إلى ديار قومه، وهذا يضفي معنى واضحًا على مدى حب الشخص العربي لقبيلته وديار أهله، وأنه وإن كان في مأمن، إلا أنه في غربته يشعر كأنه على نار من حر فراق القبيلة. كما أن ذلك قد خفف على أخصامه المصيبة التي لحقت بهم في الشخص الذي فقدوه وما عاناه القاتل من غربة فاكتفوا بهذا الضرب من العذاب الذي هو فيه ومن ثم عفوا عنه. كما أن القبائل لديها المثل القائل الطارد أرهى* من المطرود. وهذا دليل على أن الجاني في خوف دائم وفي عزلة عن أهله؛ أما المجني عليه، فإن الحق له ويعرف أن الشخص الجاني لن يهدأ له بال حتى تنتهي القضية، ودائمًا يعاني من الخوف بالأخذ بالثأر.

مـــدة الدخالـــة

نعرف أنه حسب الأعراف والمعايير القبلية أن الدخيل يؤمن كدخيل لأول وهلة ومن ثم، وبعد أن يتبين للشخص المدخل قضية الدخيل التي يتحدد على ضوئها وضعه، وبعد ذلك تتحدد المدة المناسبة التي تعطى لهذا الدخيل حسب الأعراف. وذلك حسب الآتي:

أولًا: المدة القصيرة التي تمليها الضرورة لتأمين الخائف الذي يلاحقه أخصامه للاقتصاص منه وهذه المدة تحدد بعد ما يتبين للشخص المدخل أنه لا يمكن إعطاء حق الدخل لهذا الشخص لسبب من الأسباب التي تحددها أعراف القبيلة ومعاييرها. ومثل ذلك الشخص الذي يرتكب جريمة لا تقبلها أعراف القبائل مثل السرقة أو جرائم العرض وتقطيع الوجه ونحو ذلك. وفي بعض الأحيان يكون الشخص المدخول عليه لا يستطيع حماية المدخل، مثلًا أن يكون الشخص الدخيل قد قتل أحد أقرباء القاتل أو أن الشخص المجني عليه في مركز قوة لا يستطيع المدخل مقاومتها. لذلك فإن الأعراف تعطي هذا الدخيل مدة قصيرة لتوصيل هذا الخائف إلى مأمنه سواء إلى قبيلة أخرى تدخله أو إلى شخص في موضع قوة يستطيع أن يدخله. وهذه المدة حسب أعراف كثير من قبائل الجزيرة

* أقدر وأوسع بال.

العربية تتراوح بين ثلاثة أيام إلى ثمانية أيام، ويطلق على هذه المدة أسماء مختلفة سوف نوردها لعلها تضفي على هذا النوع إيضاحًا أوسع. وهذه المدة يطلق عليها العرب الأسماء الآتية:

- الأيام المؤجلات أي التي تتيح للشخص الجاني الفرصة للهرب.
- المهربات المسربات وذلك لأنها تعطي الفرصة للخائف للذهاب إلى حيث يشاء.
- كذلك المهربات المتربات وذلك لأنها تعطي الجاني وأقربائه الفرصة للهرب. أما المجني عليه وأقرباؤه فإنه لا يستطيع أن يعمل شيئًا خلال هذه الفترة حسب الأعراف القبلية.
- المهربات المقربات لأنها تتيح للجاني الهرب، وفي الوقت نفسه تمكنه من الوصول إلى من يستطيع أن يحميه أي تقربه من الأمان.(٧)

ثانيًا: المدة للدخيل حسب الأعراف المتبعة إذا كان الدخيل لم يقم بالرحيل عن قبيلته أي الدخيل الذي يدخل على فرد من القبيلة التي ينتمي إليها نفسها. فبعض القبائل تحدد المدة المقررة للدخالة بسنة وشهرين. وهذا لدى قبائل وسط الجزيرة العربية حيث يقول بعض شعراء هذه القبائل:

دخيلنا عدة بدرع متينا يمشي ولا يخشى العداة الضديدين
يأخذ سنة ما قيل له وين وينا وستين يومًا من وراء الحول تمكين

ويقول شاعر آخر:

دخيلنا يمشي برجل جرية يأخذ سنة واثنين عدة شهرها

كما أن بعض القبائل تعطي سنة واحدة. وفي عرف هذه القبائل التي تعطي مدة محدودة أنه بإمكان الدخيل عندما تنتهي المدة المحددة له لدى الشخص المُدخِل فإنه من المعروف أن يبحث عن شخص آخر يدخله، لأن الشخص الذي أدخله في المرة الأولى عادة

(٧) محمد أبو حسان، *تراث البدو القضائي، نظريًا وعلميًا* (عمان: دائرة الثقافة، ١٩٧٤م)، ص ص١٤٥-١٤٦.

لا يدخله مرة أخرى، إلا أنه في بعض الأحيان يقوم المدخل بإعادة إدخال الدخيل لفترة ثانية، خاصة إذا كان هذا المدخل ذا مكانة رفيعة وذا شجاعة.

وهناك قصة حدثت لأفراد من عشيرة العصمة حيث قتل شخص منهم شخصًا آخر ومن ثم دخل على أحد أقرباء المقتول، وقام قريب المقتول وأدخل القاتل لمدة سنة وشهرين، ولكن ابن عم الشخص المقتول اعتدى على قريبه الذي أدخل القاتل وطعنه بخنجر يريد قتله، ولكن لم يمت. بعد ذلك وردًّا على محاولة قتله من أقربائه قام وأعاد إدخال القاتل وجماعته وهم خمسته لمدة سنة وشهرين آخرين ليكن المجموع ثمانية وعشرين شهرًا. ولكن هذا المدخل وخوفًا من سطوة بني عمه رحل عن قبيلته أي جلاء مع قبيلة أخرى ولكن المدة التي قررها سارية المفعول.

كما تجدر الإشارة هنا إلى أن بعض القبائل — وهذا نادر — لا تحدد مدة الدخالة وإنما يقبل الدخيل لدى الشخص المدخل حتى تنتهي قضيته ويسوى وضعه.

ثالثًا: الجالي: وهو الدخيل الذي يتعدى نطاق قبيلته الجغرافي ويدخل على قبيلة أخرى وهذا ليس له مدة محددة بل تمتد إلى ما لا نهاية، وقد تسري على أبنائه من بعده وأقربائه حتى الجد الخامس. ولكن في حالة إنهاء القضية التي جلا من أجلها فقد تنتهي مدة الدخالة، ومن ثم يعود إلى قبيلته إذا أراد، ولكن قبل ذلك فإنه من الواجب أن يكون هناك إعلان لتوضيح وضع هذا الدخيل وأن قضيته قد انتهت. وأن الشخص أو القبيلة المدخلة قد انتهت مهمتها كمسؤولة عما يحدث بالنسبة للدخيل وجماعته إذا كانت الدخالة تشمل جماعته، وتكون بذلك القبيلة المدخلة في حل عما قد يحدث من ضرر. ويقول أحد الشعراء:

ربعي اليّ جاءها المجني تلفيه ريف الضيوف مزبنين الجلاوي

ويقول آخر:

نخبرك بأفعالنا يا جاهل فينا حنا ترانا مزبنة الجلاوي

والجلاوي هو الشخص الذي يخرج عن حدود قبيلته كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ولكن يجب أن نعرف بأن الشخص لا يجلي عن ديار قومه إلا عندما لا يستطيع أن يأمن على نفسه عند جماعته، أي عندما لا يقوم أحد بإدخاله لكبر الذنب الذي ارتكبه أو لأنه أتى عملاً غير طيب مما يؤدي إلى عدم إدخاله. والنوع الذي لا يستطيع أحد إدخاله حسب عادات القبائل يسمى «مجنى»* أي مهدور دمه بين القبائل. إلا أن الرجال الشجعان وكذلك الشيوخ قد تخرج على هذه العادات وتدخل هذا الشخص المهدور دمه مع كبر ذنبه.

حقوق الدخيل وواجباته

من عادات القبائل أن يلحوا في سؤال الدخيل الذي يوجد في ظرف حرج، وغالبًا ما يكون مطاردًا من شخص أو أشخاص يريدون قتله أو الأخذ بالثأر به، فعندما يأتي مسرعًا ويطلب الدخل من الشخص الذي أمامه فإنه يسأله هذا الشخص بطريقة سريعة لماذا أتى إليه يطلب الدخل؟ ولكن الدخيل يصر على طلب إعطائه حق الدخالة دون ذكر السبب، وهناك ليس أمام الشخص الذي طلب الجاني منه أن يدخله إلا أن يقبله دخيلاً أولاً ثم بعد ذلك يسأله. وهذا أول واجبات الدخالة أي قبول الدخالة أولاً. بعد ذلك يقوم المدخل بإكرام الدخيل ويُضيّفه أي يقدم له الطعام. وبعد ذلك إذا اعتبره دخيلاً لديه حسب نظم الدخل المعمول بها يكون مكرمًا ومقدمًا في التقدير على الأخ والأهل وتكون له الأولوية بالاهتمام.

والدخيل على القوم يصبح منهم إذا استمر بقاؤه معهم أي في حالة عدم إنهاء قضيته مع أخصامه وخاصة في حالة الجلا. لأنه في بعض الأحيان إذا كانت قضية هذا الشخص الذي جلا عن ديار قومه معقدة، فإنه يبقى في مضارب القبيلة التي لجأ إليها لمدة طويلة، وقد يندمج معها ويصبح واحدًا منها. ويكون له ما للقبيلة وعليه ما عليها. ويقول ابن خلدون: «اعلم أنه من البيّن أن بعضًا من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة

* ويعرف عند العرب بالخليع.

إليهم أو حلف أو ولاء أو لفرار من قومه بجناية أصابها، فيدُعى بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النُصرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال . »[٨]

كما أورد ابن خلدون في مقدمته قصة عرفجة بن هرثمة لما ولاه عمر على بجيلة ولم يقبلوا ذلك « . . . وقالوا هو فينا لزيق، أي دخيل ولصيق، وطلبوا أن يُولي عليهم جريرًا. فسأله عمر عن ذلك فقال عرفجة: «صدقوا يا أمير المؤمنين أنا رجل من الأزد أصبت دمًا في قومي ولحقت بهم . »[٩] فهـذا الرجل الذي دخل على هذه القبيلة واندمج معهم وأصبح واحـدًا منهم بهذه السرعة حتى كاد يُولَّى عليهم يعطي دليلاً واضحًا على اهتمام القبائل العربية بمكانة الدخيل وقبوله من أفراد القبيلة كواحد منهم. وكيف أن نظام الدخل يعد من أقوى الأنظمة الموجودة. فلا شك لو أن هذا حدث لأحد سلالة هذا الرجل بعد جيلين أو ثلاثة لكان واليًا عليهم. يستنتج من هذا أنه في الوقت الحاضر يوجد أفراد قبائل هم في الأصل ليسوا من هذه القبائل التي هم مشائخ لها. حيث قد أتى في البداية إما دخيلاً أو حليفًا ومن ثم عاش مع تلك القبائل وأصبح واحدًا منها ومع مرور الوقت ارتقى إلى أعلى منصب في القبيلة.

كما أن المبالغة في إكرام الدخيل وحمايته من الأمور الضرورية حسب عرف القبائل العربية. حتى إنه إذا كان لدى قبيلة دخيل من قبيلة أخرى أي (جالي)، فإنه عندما يُعلم أن هناك شخصًا غريبًا في القبيلة يخبرون هذا الدخيل به ويعرضونه عليه خوفًا من أن يكون من غرماء هذا الدخيل وقدم ليقتصّ منه. وأي نوع من الإهانة يتعرض لها الدخيل فإن الشخص المـدخل أو القبيلة المدخلة لا تتركها تمرّ دون عقاب شديد حتى يرد للشخص المدخل اعتباره قبل الدخيل نفسه، ويسمونه ذلك تبييض الوجه. والتعرض للدخيل يعتبر تقطيعًا للوجه. فالدخيل مصون ماله وعرضه ومحفوظة كرامته لدى المدخل. كما أن قصة

---

(٨) عبدالرحمن بن خلدون، *المقدمة*، تاريخ العلامة ابن خلدون (بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ١٩٦١م)، ص٢٢٩.

(٩) ابن خلدون، *المقدمة*، ص٩.

ناجع الصهليلي تعطي دليلًا على مدى الالتزام بحماية الدخيل مهما غلى الثمن، وملخصها أن شخصًا يدعى ناجع دخل عليه شخص يطلب الإجارة من أمير القرية الذي يطارده ولكن تمكن أمير القرية من القبض على هذا الدخيل وقام بضربه وهذا جعل ناجعًا يتربص بأمير القرية لقاء ضربه لدخيله ويزيح العار الذي وقع عليه بسبب ذلك. وفي إحدى الليالي هجم على الأمير في المكان المحدد له في منزله ولكن في تلك الليلة لم يكن الأمير في ذلك المكان وإنما كان أحد الضيوف ولم يعلم ناجع بذلك إلا بعد أن قتل هذا الضيف. وهرب ناجع وأخذ الأمير يلاحقه من أجل تقديمه للمحاكمة، ولكن ليس من السهل الوصول إليه. لذلك فإن الأمير دبر خدعة من أجل القبض عليه. حيث قام بالقبض على دخيل ناجع وسجنه وأشاع أنه سوف يقتل هذا الدخيل إذا لم يسلم ناجع نفسه وعندما قرب الموعد المحدد لإنفاذ القتل في هذا الدخيل قام ناجع بتسليم نفسه طائعًا مختارًا للأمير لقتله دون دخيله.(١٠) كما أنه من حق الدخيل أن يقوم الشخص الذي أدخله بالسعي من أجل إنهاء قضيته مع أخصامه إن استطاع ذلك. يقول أحد شعراء القبائل في وصف الحرص على الدخيل وإكرامه:

يا شلاش ما نعطي دخيل نصانا لو جمعوا كل العساكر والأروام

أما الواجبات التي تُستوجب على الدخيل فهي أن يقوم الدخيل بسرد قضيته كاملة للشخص المدخل وجميع ملابساتها. كما يقوم بتعريفه بنفسه إذا كان المدخل لا يعرفه. كما أن على هذا الدخيل أن يلتزم بتعليمات الشخص المدخل لكي لا يعرض هذا الدخيل نفسه للخطر. ومن الأشياء التي يجب على الدخيل تجنبها أن لا يخرج عن حدود القبيلة المدخلة له إذا كان جالى. وأن لا يحاول الذهاب إلى ديار أخصامه. كما أن عليه ألا يبعث لهم كلامًا يثير غضبهم، كما أنه ليس له الحق في غزو تلك القبيلة وعليه الالتزام بالأعراف المرعية في القبيلة التي يعيش معها ويحترم أعرافها وعاداتها وألا يبدر منه أي سلوك سيىء. كما أن على الدخيل الذي لم يخرج عن قبيلته أن يحترم الشخص المدخل ولا يحاول أن يستفز المجني عليه بأي فعل أو كلام.

---

(١٠) فهد المارك، من شيم *العرب*، ط٣ (الرياض: المؤلف، ١٩٨٠م)، ص ص٥-٢٦.

والـدخيل الذي يخرج عن تعليمات المدخل كأن يحاول غزو القبيلة التي تطالبه أو يذهب إلى ديارهم دون علم الشخص المدخل فإن المدخل في حل مما يحصل لهذا الدخيل. كما أن الشخص المدخل له الحق في أن يفسخ الدخل في حالة إخلال الدخيل بالأعراف المتبعة في نظام الدخل. ولكن حسب الأعراف أيضًا إذا أراد المدخل أن يفسخ الدخل عليه إشعار الدخيل وإعطاؤه مدة كافية ليبحث عن شخص آخر أو قبيلة أخرى تدخله.

تقطيـع الوجـــه

عندما يعتدي الشخص المجني عليه أو أحد أقربائه على الدخيل وهو في وجه أحد الأشخاص (أي دخيل لديه) فإن ذلك يسمى تقطيع وجه بالنسبة للمُدخِل. وتقطيع الوجه كلمة تدل على منتهى الإهانة للشخص المُدخِل. وفي حالة تعدي أي شخص على هذا الدخيل، فإن العيب الذي ما بعده عيب يقع على الشخص المدخل لهذا الدخيل حتى يأخذ حق هذا الدخيل من الشخص الذي اعتدى عليه، ومن ثم وبعد أخذ حق الدخيل وبطريقة مبالغ فيها، فإنه يقال فلان أي الشخص المدخل بيض وجهه أي انتقم لنفسه من الشخص الذي اعتدى على دخيله أولاً وثانيًا انتقم لدخيله بما يرضيه. والاعتداء قد يكون بالقتـل أو الاعتـداء عليه بالضرب أو أخـذ حلالـه أو إحداث أي شيء يسيء للدخيل والقصاص ممن يعتدي على الدخيل غالبًا يكون أشد بكثير مما حدث لهذا الدخيل. فبعض الأعراف تحدد «المربع» أي أربعة أمثال ما أخذ من الدخيل. مثلاً إذا أخذ أحد مالاً للدخيل أو أتلف له حلالاً أو شيئًا من ذلك فإن صاحب الوجه الذي هو الشخص المدخل يقوم بإرغام الشخص الذي أضر بالدخيل بدفع أربعة أمثال ما أتلفه أو أخذه والبعض يغرم إلى أحد عشر مثلاً. ومن الأمثلة على جزاءات تقطيع الوجه ما يلي: اعتدى شخص على أحد الأشخاص وقتله ومن ثم دخل على شخص ثالث. ولكن أحد قرابة الشخص المعتدى عليه اعتدى على واحدة من أغنام الجاني وكسر أحد قوائمها. ومقابل ذلك قام صاحب الوجه أي الشخص المدخل وقاضي قرابة الشخص المقتول وصدر حكم بإعفاء القاتل من دم القتيل مقابل هذا الاعتداء.[١١] وسنورد حادثتين لتوضيح ما ذكر سابقًا.

---

(١١) أبو حسان، *تراث البدو*، ص٢٤٦.

هناك حادثة وقعت في إحدى قبائل الشمال. وهي أن شيخًا من قبيلة عنزة يدعى أبا لروس وكان عنده دخيل (صلبي) وعندما كان هذا الدخيل يرعى مواشيه مر به أناس من قبيلة عنزة برئاسة شخص يدعى القحص وأراد أن يأخذ من غنم هذا الدخيل ذبيحة، ولكن هذا الدخيل أخبره بأنه دخيل الشيخ أبالروس ولكن القحص لم يعُر ذلك اهتمامًا، وأخذ أحد غنم الدخيل وذبحها. بعد ذلك قال الدخيل قصيدة موجهة إلى أبالروس يقول فيها:

القحص من مُرّ الليالي سقاني خلاني أشرب من الغرب وأزيد
إما أقطع يده يأشوق جالي الشماني وإلا أذبحه كان أنت تدري المناقيد

بعد سماع الشيخ هذه القصيدة أرسل إلى القحص وعندما أتاه قطع يده، وقال لو أن دخيلي طلب ذبحك قبل طلبه قطع يدك في قصيدته لفعلت.

والقصة التالية حدثت في قبيلة عتيبة إذ كان هناك شخص يدعى دواس وكان يطارده أناس من القبيلة نفسها، حيث إنه مطالب لهم بدم أي سبق وأن قتل منهم شخصًا. وقد ذهب مسرعًا إلى بيت شخص ثالث يدعى السلات ولكن هذا الشخص لم يكن موجودًا في بيته. وقام أخصام دواس بقتله قبل أن يصل إلى بيت السلات الذي ينوي أن يدخل عليه. وكانت زوجة السلات موجودة وأدخلت القتيل في البيت حتى يأتي زوجها ويراه لأنه قتل في المنطقة التي يحددها العرف القبلي أنها حدود لبيتهم والشخص الذي يصل إليها يعتبر دخيلاً عليهم. وعندما حضر صاحب البيت وعلم من زوجته أن هذا الرجل قد قتل بمقربة من بيته أنشد هذه الأبيات يشكو حزنه لما حدث حيث إن فيه تقطيع لوجهه ويتوعد الذين قاموا بقتل دخيله حيث يقول:

الله من كبد عليها المري من واحد دمه على العمداني
والله لتونس حربنا يا مجرى إلى صار ما يمشي عليك العاني*

* يقصد الشاعر هنا إذا لم يمش عليك عرف القبيلة حيث إنه قام بقتل الشخص في هذا المكان ويعتبر تعديًا لنظام الدخل المتعارف عليه.

بعد ذلك قام صاحب البيت واسمه، فاجر السلات، بقتل اثنين من الأشخاص الذين قتلوا دخيله وبعد ذلك نشبت حرب بين السلات وجماعته والأشخاص الذين قتلوا دخيله، ويقال لهم الجذعان حيث مات عدة أشخاص من الطرفين، ولكن شيوخ القبيلة تدخلوا وحلوا المشكلة بينهم.

وظيفـة الدخل وما حدث لها من تغير

في الأيام السابقة كان للقبائل استقلال تام عن الحكومات المركزية والتي تكاد سلطتها لا تتعدى المدن الكبيرة. فالقبائل البدوية التي تجوب فيافي شبه الجزيرة العربية فإنها تقريبًا لا تعترف إلا بما تمليه أعرافها ونظمها وما تمليه من عادات. وهذه النظم والأعراف أملتها ظروف البيئـة التي تعيش هذه القبـائل فيها. وهذه الظروف قد أفرزت كثيرًا من النظم والعادات النبيلة التي يوصف بها الإنسان العربي. فالبيئة في شبه الجزيرة العربية كانت لها وطأتها القاسية على من يسكن فيها. ومن النظم البارزة في هذه المجتمعات نظام الضيافة والكرم وحماية الجار الذي كان من أهم المميزات لهذه الأمة منذ غابر الأزمان. كما أن نظام الأمن وإن لم يكن هناك مؤسسة تمثله وتسهر على تطبيقه بالمفهوم الحديث، إلا أن قبائل شبه هذه الجزيرة لديها من الأعراف والمعايير ما يكفل الأمن لقاطنيها.

فنـظام الدخل من أهم الوسائل الأمنية التي كانت تمارس في مجتمعات قبائل شبه الجزيرة العربية وما زالت تمارس في وقتنا الحاضر لدى بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية. فالإنسان في ساعات الغضب يرتكب كثيرًا من الأعمال العنيفة التي تجر كثيرًا من المصائب والعواقب الوخيمة. ولكن نظام الدخل عادة يهدىء الأمور منذ البداية ويوقف التمادي في الشر ويمنع وسائل العنف ويحمي الخائف من بطش المقتدر. وبعد زوال مراحل الغضب والهلع لدى كل من الجاني والمجني عليه، يحل منطق العقل والحكمة محل العاطفة والتسرع. بعد ذلك ينمو الاتجاه نحو الحلول السلمية لكثير من القضايا. فمنذ اللحظة الأولى للدخل وفرصة الأخذ بالثأر تأخذ في التضاؤل ويبرز منطق التفاهم والعوض، لأن صاحب الحق يصعب عليه أخذ ثأره بنفسه ويكون اللجوء إلى وسائل أخرى أكثر احتمالاً. كما أن ذلك أيضًا يحفظ للمجني عليه كرامته إذا حلت القضية بالطرق السلمية وحسب الأعراف المتبعة

في المجتمع القبلي. ذلك لأنه ليس أمام المجني عليه إلا أن يقبل بالحلول السلمية أو يقوم بعمل أحمق يقود في النهاية إلى كارثة أكبر وأشنع وأعم مما حدث له. فالبديل هو الإقدام على تقطيع وجه المدخل. والذي له قوانين تحكمه وعقابه شديد جدًّا. فجميع القبائل تجعل جريمة تقطيع الوجه في مرتبة مشابهة إن لم تكن أشد من جرائم القتل والاعتداء على المحارم أو الأعراض. ونستنتج مما سبق أن نظام الدخل من الأنظمة الاجتماعية التي تحفظ التوازن في المجتمع وتساعد على استمرار التعايش في تلك المجتمعات.

وفي العصر الحديث أصبحت جميع المجتمعات البدوية تقريبًا تخضع لحكومات مركزية وأخذت المجتمعات القبلية البدوية المتنقلة في الاستقرار وأصبحت هذه القبائل في شبه الجزيرة العربية تخضع لسلطات الحكومات المركزية، مما جعل هذه الحكومات تضطلع بمعظم المهام التي كانت القبيلة تقوم بها في الماضي. فقد سلخت المؤسسات الحكومية جميع الوظائف التي كانت تقوم بها القبيلة ما عدى الشيء القليل من هذه الوظائف، مثل الحفاظ على النسل والإنجاب والمراحل الأولى من التنشئة الاجتماعية. فالدولة تقوم بمهمة الوظيفة التعليمية والصحية والاقتصادية والسياسية، إضافة إلى الوظيفة الأمنية التي يعتبر نظام الدخل جانبًا من أهم جوانبها. ونتيجة لذلك، فقد أصبح نظام الدخل مجرد اسم فقط في قبائل شبه الجزيرة العربية ما عدا بعض القبائل التي تقطن في جنوب شبه الجزيرة العربية. فهناك تناسب عكسي بين قوة سلطة الحكومة المركزية وقوة نظام الدخل لدى القبائل البدوية بمعنى أنه كلما قويت السلطة المركزية في دولة من الدول فإن سلطة القبيلة تتضاءل. فنظام الدخل لدى القبائل البدوية الآن لا يعدو أن يكون «إرثًا» اجتماعيًّا. فالفرد ذو التنشئة القبلية في الوقت الحاضر وعندما يدخل شخص عليه فإن الشخص المدخل يتكفل بحمايته إلى أن يسلمه إلى أقرب سلطة أمنية، سواء شرطة أو إمارة ونحوه. ويستثنى من ذلك بعض القبائل العربية التي تعيش في اليمن، فإن نظام الدخل مازال ساريًا لدى قبائلها. وما زالت الحكومة المركزية غير قادرة على طمس هذا النظام في قبائل اليمن.

خاتمة

نظام الدخل من النظم التي لها دور في حفظ التوازن في مجتمعات الجزيرة العربية

حيث تعارف عليها الناس واحترموها. وتبدأ عملية الدخل بطلب من الشخص الذي يطلب الحماية شفويًا إلى شخص آخر، وعند إعلان هذا الطلب فإن الحماية تلزم المدخل وحتى وإن كان غير حاضر، إذا كان الدخيل قرب أو دخل بيت هذا المدخل. وهناك أنواع للدخالة، سواء على مستوى الجريمة أو على النطاق الجغرافي، أي في قبيلته أو خارج حدود قبيلته. وكل نوع من الدخل له مدة معينة، فهناك المدة القصيرة وهي عبارة عن بضعة أيام تُعطىَ للشخص الذي لا ينطبق عليه نظام الدخل لسبب من الأسباب، وهو أن يكون الفعل الذي ارتكبه من الجرائم التي لا يقرها المجتمع، وهناك المدة المتوسطة التي هي غالبًا ما تكون سنة وشهرين والتي تعطى للشخص الذي يدخل على أحد أفراد قبيلته، وهناك المدة طويلة الأجل التي غالبًا ما تكون خارج نطاق قبيلة الجاني ولا تنتهي مدتها إلا بانتهاء القضية وتسمَّى الجلوة. وقد حدد نظام الدخل للدخيل حقوقًا وهو أن يُحمى وتصان كرامته، كما أوجب عليه واجبات منها أن يكون ملتزمًا عند المدخل ولا يظهر منه أي فعل أو كلام يستفز المجنى عليه.

لقد كان للدخل دور كبير في حفظ التوازن في المجتمعات القبيلية في الماضي وكان وسيلة فعالة من وسائل الأمن في هذه الجزيرة، إلا أنه قد اعترى هذا النظام تغير كبير بسبب وجود سلطة مركزية قوية تقوم بحفظ الأمن وأصبح الأمن من مهماتها بدلاً من مهمة القبائل وبذلك أصبح نظام الدخل شبه معطل.

Dakhal: 'Entering the Protection' System

Mohammed K.D. Al-Oteiby
Assistant Professor, Department of Sociology, College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. The goal of this paper is to study an historical phenomenon that existed in the territories that make up what is known today as Saudi Arabia. This phenomenon is known amongst the tribes of the Arabian peninsula as *dakhal,* which literally translates into 'entering protection' in English. While this system of protection is known throughout Arabia, this paper deals with it as it was practiced in the middle of the Arabian peninsula. Specifically, this paper will focus on the following points:

a. The social definition of the 'entering protection' system and the procedures that must be followed by the person who wants to be protected under this system.

b. The different types of entering protection which are dependent on the action or crime committed by the seeker of *dakhal.*.

c. The period of time granted to the would-be protégé's of *dakhal:* this period of time could vary from three days to as long as the protégé of the protection system lives.

d. The protégé's rights and obligation. His rights include that the protector and his family or clan must respect him and offer him full protection during the time period of protection which was agreed upon earlier. His obligations are varied, some of which are: he must not bother anybody; must not contact his enemy; must not go to his relatives or clan. Furthermore, the protégé of protection must not leave the protector's territories without the protector's consent.

e. Finally, this paper discussed the function of entering protection's system. It was indicated that this phenomenon fulfilled an important social function in tribal communities in the absence of a strong central government.